سند
SANAD

الإستعلاء بالإيمان

دراسة تاريخية نقدية

شُعيب حبيلة

ع | ورقة بحثية رقم (٤) | مسلسل رقم (١٠) ٢٠١٩

مُبادرات طابة
TABAH INITIATIVES
www.tabahinitiatives.org

اسْتِعْلاَءُ الإِيـمَــانِ
(دِرَاسَةٌ تَارِيخِيَّةٌ نَقْدِيَّةٌ)

إعداد
شُعيب حبيلة
مخبر اللغة وتحليل الخطاب
جامعة محمد الصديق بن يحيى-جيجل-الجزائر

الترقيم الدولي : ٥-٠١٤-٣٩-٩٩٤٨-٩٧٨

الإستعلاء (دراسة تاريخية نقدية)

جميع الحقوق محفوظة © ، يمنع إنتاج أو توزيع أي جزء من هذا الإصدار بأي وسيلة دون موافقة خطية صريحة من مؤسسة طابة ، إلا في حالات الاقتباس المختصر مع العزو الدقيق ، والكامل في المقالات النقدية ، أو المراجعات .

www.tabahfoundation.org

نبذة عن مؤسسة طابة :

هي مؤسسة غير ربحية تعنى بتقديم أبحاث ومبادرات واستشارات وتطوير كفاءات، وتسهم في تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر للاستيعاب الإنساني، وتسعى إلى تقديم مقترحات وتوصيات لقادة الرأي لاتخاذ نهج حكيم نافع للمجتمع بالإضافة إلى إعداد مشاريع تطبيقية تخدم المثل العليا لدين الإسلام وتبرز صورته الحضارية المشرقة مستندين في ذلك على مرجعية أصيلة واستيعاب للتنوع الثقافي والحضاري والإنساني.

نبذة عن مبادرة سند :

مبادرة مجتمعية تُعنى بتبيين حقائق الأمور وإزالة الغشاوة عن الناس لمعرفة تصرفات المتطرفين الذين ينسبون أنفسهم إلى نصرة الإسلام وإبطال شبهاتهم، وتميز أفعال التطرف باسم الدين بأنها فعل الخوارج، بما يصحح المفاهيم، ويحفظ على الناس الدين، عن طريق توفير الأدلة الشرعية، ووسائل توضيح الحقيقة للدعاة والإعلاميين والنخب المثقفة المؤثرة على المجتمع ليقوموا بدورهم في حقن الدماء من خلال نشر الوعي الصحيح بين الناس.

نبذة عن الباحث :

الباحث شعيب عز الدين حبيلة من مواليد ١٩٩٣ بولاية جيجل شرق الجزائر، حائز على الثانوية العامة في الآداب والفلسفة سنة ٢٠١٢، وعلى شهادتي ليسانس وماستر في اللغة العربية والدراسات القرآنية من الجامعة الإسلامية الأمير عبد القادر بقسنطينة سنتي ٢٠١٥ و٢٠١٧. انتسب سنة ٢٠١٧ إلى كلية الآداب واللغات بجامعة محمد الصديق بن يحيى بولاية جيجل كباحث في الدكتوراه، وعضو في مخبر اللغة وتحليل الخطاب، وأستاذ بالكلية ذاتها.

شارك في عدد من الملتقيات الوطنية، وهو مشتغل بالمصطلح القرآني وبالخطاب الديني عامة والصوفي خاصة، أصدر سنة ٢٠١٦ رواية «أحفاد الأمير» عن دار الأوطان بالجزائر العاصمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل:

الحمد لله العليّ، والسلام على رسُوله النبي الأمّي، أما بعد:

فهذه دراسة خُصِّصَت لمناقشة إشكالية (استعلاء الإيمان) التي عُرِفَ بها سيّدُ قطب دونَ غيرِه ممَّنْ سبقُوه من المُتقدّمين والمتأخرين، وذلك من خلال كتابه: (معالم في الطريق)، وتفسيره: (في ظِلالِ القُرآنِ)، استحضرْنا فيها المعاجمَ اللغويّة والاستعمال القرآني للاستعلاء، ونُـقُول كُـتَّابِ الدَّعوةِ الإسْلاميَّة عن سيّد قطْب، انتهاءً بأثَر فرضية استعلاء الإيمان على الفرد والمجتمع.

إن الداعيَ إلى هذِه الدّراسة هو أنَّا لمْ نقِفْ علَى مَنْ بسط لفرضية استعلاء الإيمان عند سيد قطب بتوسُّع، خَلا بعض المقالات التي التزمت شِقًّا من الدّراسة دُونَ آخِر، ومنهجنا الرئيس في هذا البحث وصفي نقدي، عمدته نصوص سيد قطب نفسه، مع حرص على ذكر المفاهيم المتصلة بالاستعلاء عنده -أعني: الجاهلية والحاكمية وعند غيره من الكُتّاب مِمَّنْ نقلوا عنه أو تأثَّروا به.

هذا وقد حَوَت الدراسة ثلاثةَ مباحث وخاتمة، هذا تفصيلها:

- **المبحث الأول**: الاستعلاء بين المعاجم اللغوية والاستعمال القرآني.
- **المبحث الثاني**: فرضية استعلاء الإيمان عند سيد قطب ونقضها:
  - **المطلب الأول**: مبحث استعلاء الإيمان في كتاب (معالم في الطريق) ونقضه.
  - **المطلب الثاني**: استعلاء الإيمان في تفسير سيد قطب ونقضه.
- **المبحث الثالث**: حضور استعلاء الإيمان في أدبيات الإسلاميين وأثره النفسي:
  - **المطلب الأول**: حضور استعلاء الإيمان في أدَبيّات الإسلاميين.
  - **المطلب الثاني**: أثر فرضية استعلاء الإيمان النفسي على الفرد والمجتمع.
- **خاتمة**.

المبحث الأول

الاستعلاء بين المعاجم اللغوية والاستعمال القرآني

الظاهر من شروح المعجميين المتقدمين أنهم لا يميزون بين العلو والاستعلاء في أصل المعنى؛ فقال الخليل: «وَكُلُّ مَنْ قَهَرَ امْرَأً أَوْ عَدُوًّا فقد عَلاَهُ وَاعْتَلاَهُ، وَاسْتَعْلَى عَلَيْهِ»[1]. ونقل الأزهري ما جاء في العين -ونسبَه إلى الليث على عادته[2] ومن ذلك قول نشوان الحميري: «اسْتَعْلَى: أيْ: عَلَا»[3]، وقال مثله زين الدين الرازي[4].

والغالب في معاني الاستعلاء عندهم: القَهْر والغَلَبَة.

اشتمل القرآن الكريم على صيغ مختلفة من مادة (ع ل و)؛ من ذلك الفعل (عَلَا) الذي تكرر مرتين بمعنى: طَغَى. ومن مشتقاته: (عُلُوًّا)، و(تَعْلُنَّ)، و(تَعْلُوا)، وكذلك ورد الفعل (تَعَالَوْا) بمعنى: أَقْبِلُوا، ومنه (تَعَالَيْنَ).

ومن المادة ذاتها (تَعَالَى) بمعنى: تَسَامَى، و(اسْتَعْلَى) بمعنى: صار عَالِيًا بغَلَبَةٍ، وأفعل التفضيل (الأَعْلَىَ) بمعنى: الأَشْرَف والأَفْضَل، أو الغَالِب،

١- ينظر: العين،الخليل الفرهودي، تحقيق: إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي، [د ط]، (٢٤٧/٢).

٢- ينظر: تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١، (١٢٢/٣).

٣- ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان الحميري، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وآخران، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر، سورية، ط١، ١٩٩٩، (٤٧٤٦/٧).

٤- ينظر: مختار الصحاح، زين الدين الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط٥، ١٩٩٩، ص ٢١٧.

وجمْعُه: (الأَعْلَوْنَ). ومن مشتقات المادة: (عالٍ) و(عَالِيًا (و(عَالِينَ) بمعنى: التجَبّر. ومن أسماء الله تعالى: (الْعَلِّي) و(المُتَعَالِ).

والذي يعنينا ممَّا سَبَق: الفعل: (اسْتَعْلَى)، وأفعل التفضيل: (الأَعْلَوْنَ)؛ اللّذيْن استحدثَ منهما سيد قطب مصطلحَ: (اسْتِعْلَاء الإيمَانِ).

أما الفعل (اسْتَعْلَى) فقد ورد في القرآن الكريم على لسان فرعون: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤]، والغالب في مادة (الْعُلُوّ) أنها إذا لم تُـقْرَنْ بالله -عز وجل- أو ملائكته ، أنْ تُذْكَر ذَمًّا.

ونقل الراغب الأصفهاني قولًا في التمييز بين الفعليْن (عَلَا) و(عَلِيَ)، فقال: «قيل: إنّ (عَلَا): يُقَالُ في المَحمُود والمَذمومِ، و(عَلِيَ): لا يُقال إلَّا في المَحْمُودِ»[٥]. والاستعلاء عنده من حيث الأصل: طلبٌ للعُلُوّ المذْمُوم، وقد يَرِدُ طلبًا للرّفْعة. أمّا الفعل (اسْتَعْلَى) من آية طه: فيحتملهما جميعًا حسبه[٦]. ونقله عنه السمين الحلبي على عادته[٧].

رأَى السّمين الحلبي أنَّ المرادَ بـ(وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ): «المَنْصُورُونَ على

٥- ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان الداودي، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت،صيدا، ط١، ١٤٢٠ هـ، ص ٥٨٣.

٦- ينظر: المرجع نفسه، الموضع نفسه.

٧- ينظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦، (١١٧/٣).

أعدائكم بالحجّة والظّفر»[٨]. واختار معجم مجمع اللغة بالقاهرة معنى: (الغَلَبَة)؛ فقال مؤلِّفُوه: «الأعلون: جَمْع الأَعْلَىَ، بمعنى الغالب»[٩]. وجعل الفيروز آبادي لمُفْرَدَةِ: (الأَعْلَىَ) خمسةَ وجُوهٍ في القرآن؛ فقال في

(الأَعْلَوْنَ): «غَلبَة المؤمنين على الكفَّار يوم الحرْبِ، والوَغَى»[١٠].

أما الوجه الأول عنده فبمعنى: عُلُوّ الحقّ في العَظمة والكبرياءِ، وخصَّه بقوله تعالى:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[١١]، وهذا الوجه نسبَه سيد قطب للمؤمنين غلطًا كما سنتبَيَّـنُه.

٨- ينظر: المرجع نفسه، (١١٩/٣).

٩- ينظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين، مجمع اللغة العربية، طبعة منقحة،١٩٨٨، ص٧٨٨.

١٠- ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط١٩٩٦،١، (١٥٦/٢)

١١- ينظر: المرجع نفسه، (١٥٦/٢).

المبحث الثاني

فرضية استعلاء الإيمان عند سيد قطب ونقضها

- **المطلب الأول**: مبحث استعلاء الإيمان في كتاب (معالم في الطريق) ونقضه:

ابتدأ سيد قطب مبحث (استعلاء الإيمان) بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. ثم رغب في أن ينفِيَ تخصيصَ الآية بالجهاد فقال: «أوَّل ما يتبَادر إلى الذِّهْن من هذا التوجيه أنّه ينصَبُّ على حالة الجهاد المُمثَّلة في القتال؛ ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر... إنه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن...»[١٢].

ويستمر سيد قطب في بسط معنى استعلاء الإيمان عنده، بأسلوبٍ أدبي يغلب عليه تَكرار المفاهيم نفسها؛ بمصطلحات مختلفة، نحو: عُرْف اجتماعِيّ، اصطلاح المجتمع، وتعارُف الناس... إلخ.

ينبغي أن نناقش قضية عموم الاستِعْلاء، أو العُلُوّ، في آية آل عمران عند سيد قطب؛ فالآية نزلت في تعْزِيَة المؤمنين على ما أصابهم في أُحُد، وقد ذكرت التفاسير لنزولها أسبابًا: من ذلك أن المسلمين عَلَوْا الْجَبَلَ يَوْمَذَاكَ. ومن ذلك أن عبد الله بن عباس قال: أَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ يُرِيدُ أَنْ يَعْلُوَ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ،

١٢- ينظر: معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، ط٦، ١٩٧٩، ص ١٦٣.

فقال النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا يَعْلُونَ عَلَيْنَا». فأنزل الله عز وجل:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١٣].

والحق أن مسألة العموم والخصوص لها تعلق بإشكالية خطاب المعدوم عند الأصوليين، أيْ: إن الذين لم يحضروا نزول القرآن الكريم في حكم المعدومين، ولا يتعلّق بهم الخطاب إلا من جهة القياس؛ فالأعْلَوْن هم الذين شهِدُوا أُحُدًا مع النبي ﷺ أساسًا.

والإشكال ليس في جعل العلو سمة من سمات المؤمنين عامة، ولكن في مفهوم الإيمان عند سيد قطب وفي فهم الآية؛ ما جعله يُحْدِثُ المصطلحَ المُرَكّب (استعلاء الإيمان)، أي: الاستعلاء الإيماني.

إن قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: إخبار بغَلَبَتهم، ووعْد بـأنْ تكونَ العاقبةُ لهم، على جهة الاستقبال، ومَنْ أرادَ الحال قيّد العُلوّ بالحجّة غالبًا؛ لا بالإيمان[١٤]

ومثله قوله في موسى عليه السلام عندما واجَهَ سَحَرةَ فرْعوْن: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]، وقد جاءت مادة (العلو) في هذا المعنى

١٣- ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠، (٢٣٦/٧).

١٤- ينظر: تفسير الراغب الأصفهاني، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١، ١٩٩٩، (٨٧٤/٣-٨٧٥).

نلاحظ هنا أنه ليس في الآية أمر بالاستعلاء، وهو وصف منافٍ لما هو عليه حال المؤمن من التواضع.

نعم؛ المؤمن له وصف "السمو" على نوازع النفس وشهواتها، أما الاستعلاء فهو تكبر مذموم باسم الدين.

والعلو جاء بمعنى الغلبة، وورد في الآيات على سبيل الوعد والإخبار، لا على أنه من المأمورات الشرعية.

من قول الحق لِبَنِي إسرائيل: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧].

قال الطبري: وليدمِّروا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميرًا×[١٥]. وأتى أيضًا بمعنى الغلبَةِ في قول الحق: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤]، أي: مَنْ ظَهر وغَلبَ.

أما قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: فليس شهادةً لهم بالإيمان، وليس متعلقًا بالعُلُوّ؛ ولكن بالنَّهْي في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾؛ ذلك أن عبارة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تكررت في القرآن الكريم ست عشرة مرة، متصلة بأمْر الله ونهيِه في الغالب، نحو: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، ونحو: ﴿فَاللهُّ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، وقوله: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُّ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]. والراجح أنْ يُحْمَلَ الإيمانُ في الآية على التصديق، أيْ: إِنْ كُنْتُمْ مُصَدّقِينَ.

والفرق بين عُلُوّ موسى وعُلُوِّ أتباعِ النبيﷺ في موضع الآية: أنَّ علو موسى عليه السلام ثابت؛ لذا أكّده بـ(إنَّ) وبتكرار الضمير، وبلام التعريف؛ أمَّا عُلُوّ أتباع النبيﷺ فحادِثٌ ومظروف بالواو الحالية؛ فالابتداء والخبر اللَّذَانِ في موضع الحال ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾،مثل قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ومثل قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، ومثل: ﴿وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾...إلخ.

من هذا نتبـيّن غلط سيد قطب؛ إذْ يقول بعد التأسيس لمقولة الغربة التي يردِّدها المخالفون لرأي السائد والجماعة عادة: يجيء هذا التوجيه

١٥ – ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق،(٣٨٨/١٧).

ليواجه الوهن كما يواجه الحزن... يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات»[١٦]. لا نُسِيء التأويلَ إنْ قلنا: إنَّ سيد قطب فَهِم في الآية أمْرًا بالاستعلاء على الوهَنِ والحزْن؛ لأجل أنّ الذين نزلَت فيهم الآية ﴿والذين أتَوْا من بعدهم﴾ مؤمنون، وهذا الفَهْم بعيد جدًّا، ولا تُؤيّده سياقات آي القرآنِ، وموارد العُلُوّ؛ دليلنا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. فهل يَصحّ أنْ يُقالَ في هذه الآية ما قيل في الأولى بفهْم سيد قطب؟

ولْنَعُدْ إلى سياق آية محمدﷺ، فقد تكرَّر الضمير (أَنْتُمُ) ثلاثَ مرّاتٍ، قال تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(٣٥) إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ(٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ(٣٧) هَاأَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، إن تأويل سيد قطب يصح في قوله:

﴿وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء﴾؛ لأن (الواو): استئنافية، و﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاء﴾ عطف على ﴿اللهُ الْغَنِيُّ﴾؛ فالفقر صفة في البشر، والغنى سمة في الله تعالى، وهذه حقيقة مطلقة غير مقيّدة بزمانٍ أو مكانٍ. وقد نصّ السمين الحلبي على أنّ

١٦ – ينظر: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٦٥.

جملة ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: حالية، وأن الاستئناف فيها غير ظاهر[١٧]. ولا نغفل سياق (الْأَعْلَوْنَ) في آل عمران، ففي آيات سبقت قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ٢٣].

نقَلَ سيد قطب (العُلُوّ) من معناه القرآني الذي لا يعْدُو أن يكونَ حقيقةً لغوية، معناها غلبة العدو عند المواجهة- إلى معنًى عقدِيّ حين أضَافَه إلى الإيمان، ومعلوم أن الإيمان عنده مقيّد بتصوُّرِه عن الجاهليّة والحاكميّة، ففي المبحثِ ذاته يقول: والجاهلية ليست فترة من الزمان؛ إنما هي حالة من الحالات تتكرر كلَّما انحرف المجتمع عن نهْج الإسلام، في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء[١٨].

إن هذا النقل الدلالي الذي أحدثه سيد قطب جعل (استعلاء الإيمان) عنده إزاء البشر ممَّن ليسوا مؤمنين بما جاء به النبيﷺ، والحال أنَّ الآيتيْن اللتيْن استحدث منهما سيد قطب هذا المصطلح تقيّدان وصْف (الْأَعْلَوْنَ) بحالة واحدة هي الحرب، أيْ: إنْ فرضْنا أنّ وصْفَ(العلو) بمعنى (الغلبة) عامٌّ في كل مسلمٍ، فإنما يُذْكَرُ بإزاءِ العدُوّ الحربي؛ لا عامة البشر.

١٧ - ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، اليمن الحلبي، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق،
[د ط]، (٤٠١/٣)، (٧٠٧/٩).
١٨ - ينظر: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٦٧.

والظاهر أن سيد قطب وَعَى هذا ابتداءً؛ لذا صدّر مبحثَه بنفْي تخصيص الآية، وأسبغَها تِلْكُم المعاني العامّة؛ لكي تصحّ نتائجُه منْ بَعد؛ فلا يُلامُ حينَ يقول: وحين يراجِع المؤمنُ كلَّ ما عرفَتْه البشريةُ قديمًا وحديثًا، ويَقيسُه إلى شريعته ونظامه، فسيراه كله أَشْبَه بمحاولاتِ الأطفال وخبط العميان، إلى جانب الشريعة الناضجة، والنظام الكامل، وسينظر إلى البشرية الضّالة من علٍ في عطفٍ وإشفاقٍ على بُؤسِها وشقْوتها، ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال[١٩].

وظاهر ما في هذا النص من غُلُوّ وأحكام مُطلَقة، وتناقُضٍ صريحٍ في الجمْعِ بيْنَ الاستعلاء وبين العطف والإشفاق، وخلط بين الإيمان من حيث هو عقيدة وبين الشريعة الدينية المقيدة بعلومٍ، منها: أصول الفِقْهِ بما فيه من تخصيص عامٍّ، وتقييد مطلق، واستثناء، وتعارُض أدِلّة. وفرع عنها الشرائع الوضعية التي لم تَخْلُ منْ صلاحٍ، أوْ مُوافقَة لِمَا جاء في الشريعة الإسلامية، ولا غرو أن هذا الاستعلاء المحمود في ظاهره عند سيد قطب مطية الاغترار.

- **المطلب الثاني: استعلاء الإيمان في تفسير سيد قطب ونقضه:**

فصَّل سيد قطب فرضيته عن استعلاء الإيمان في تفسيره، وشَقَّقَ مصطلحاتٍ عدّة:

- منها الاستعلاء الكاذب: وهو عنده رغبة من رغائب الذي يمُنّ إذَا

١٩ – ينظر: المرجع نفسه، ص ١٦٦.

أعطَى[٢٠].

- ومنها الاستعلاء بالعقيدة: وهي عنده الحرية[٢١].
- ومنها الاستعلاء المطلق: بوصفه موقفًا للمسلمين إزاء غيرهم[٢٢].

وكما سبق؛ فإنّ سيد قطب يَعِي أن مصطلحات العقيدة الإسلامية توقيفيّة، فما كان منه إلا أنْ أحدَثَ المركب الإضافي (استعلاء الإيمان).

يقول سيد قطب: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

﴿لَا تَهِنُوا﴾: مِنَ الْوَهَنِ وَالضَّعْفِ.﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: لِمَا أَصَابَكُمْ، وَلِمَا فَاتَكُمْ.

﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾: عَقِيدَتُكُمْ أَعْلَى: فَأَنْتُمْ تَسْجُدُونَ للهِ وَحْدَهُ، وَهُمْ يَسْجُدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ أَوْ لِبَعْضٍ مَنْ خَلْقِهِ!

وَمَنْهَجُكُمْ أَعْلَى: فَأَنْتُمْ تَسِيرُونَ عَلَى مَنْهَجٍ مِنْ صُنْعِ اللهِ، وَهُمْ يَسِيرُونَ عَلَى مَنْهَجٍ مَنْ صُنْعِ خَلْقِ اللهِ!

وَدَوْرُكُمْ أَعْلَى: فَأَنْتُمُ الْأَوْصِيَاءُ عَلَى هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، الْهُدَاةُ لِهَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا، وَهُمْ شَارِدُونَ عَنِ النَّهْجِ، ضَالُّونَ عَنِ الطَّرِيقِ.

---

٢٠ – ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٣٢، ٢٠٠٣، (١/٣٠٦-٣٠٧).
٢١ – ينظر: المرجع نفسه، (٣/١٣٥٢).
٢٢ – ينظر: المرجع نفسه، (٥/٣١٨٧).

وَمَكَانُكُمْ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى: فَلَكُمْ وِرَاثَةُ الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمُ اللهُ بِهَا، وَهُمْ إِلَى الْفَنَاءِ وَالنِّسْيَانِ صَائِرُونَ... فَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا فَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ. وَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقًّا فَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا؛ فَإِنَّمَا هِيَ سُنَّةُ اللهِ أَنْ تُصَابُوا وَتُصِيبُوا، عَلَى أَنْ تَكُونَ لَكُمُ الْعُقْبَى بَعْدَ الْجِهَادِ وَالِابْتِلَاءِ وَالتَّمْحِيصِ.[٢٣]

لن نكرِّر ما ذكرناه في المطلب السابق، ولكن نشير إلى أن سيد قطب انتَخَبَ تأويلًا واحدًا مرجوحًا عند التحقيق من غير ذكْرٍ لوجُوهٍ أخرى، وانظر ترتيب الوجوه عند فخر الدين الرازي[٢٤]:

- الْأَوَّلُ: أَنَّ حَالَكُمْ أَعْلَى مِنْ حَالِهِمْ فِي الْقَتْلِ؛ لِأَنَّكُمْ أَصَبْتُمْ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ أَكْثَرَ مِمَّا أَصَابُوا مِنْكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]. أَوْ لِأَنَّ قِتَالَكُمْ للهِ وَقِتَالَهُمْ لِلشَّيْطَانِ، أَوْ لِأَنَّ قِتَالَهُمْ لِلدِّينِ الْبَاطِلِ وَقِتَالَكُمْ لِلدِّينِ الْحَقِّ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُوجِبُ كَوْنَكُمْ أَعْلَى حَالًا مِنْهُمْ.
- الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ بِالْحُجَّةِ، وَالتَّمَسُّكِ بِالدِّينِ، وَالْعَاقِبَةِ الْحَمِيدَةِ.
- الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ مِنْ حَيْثُ أَنَّكُمْ فِي الْعَاقِبَةِ تَظْفَرُونَ بِهِمْ، وَتَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا شَدِيدُ الْمُنَاسَبَةِ لِمَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ الْقَوْمَ

٢٣ – المرجع نفسه، (٤٨٠/١).
٢٤ – ينظر: مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ، (٣٧١/٩).

انْكَسَرَتْ قُلُوبُهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْوَهْنِ؛ فَهُمْ كَانُوا مُحْتَاجِينَ إِلَى مَا يُفِيدُهُمْ قُوَّةً فِي الْقَلْبِ، وَفَرَحًا فِي النَّفْسِ، فَبَشَّرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ.

الحق أن قول الرازي: أو لِأَنَّ قِتَالَكُمْ للهِ وَقِتَالَهُمْ لِلشَّيْطَانِ...من الوجه الثاني، وقد راعَى السياق القرآني في تقديم الوجه الأول (وهو العلو في القتال).

ولْنَقِفْ مع قَالةِ سيد قطب: ... فَأَنْتُمُ الْأَوْصِيَاءُ عَلَى هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهَا ؛ فهي نتيجة لمقدِّماته السّالفة، وهي نتيجة ينقضها القرآن الكريم الذي نفَى عن النبيﷺأن يكون وكيلًا على الناس فقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْت عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦].

ونفى عنه أن يكون مسيطرًا فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١/ ٢٢]، والحقّ أنّ المسلمَ قرآنيًّا مأمورٌ بأنْ يكون شاهدًا على الأُمَم لقوْلِه: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

ولكن سيد قطب يقرّر الوكالة ومن معاني الوكيل قرآنيًّا: الحفيظ المسئول فيقول في موضع آخر: وَالنَّاسُ حَاكِمُهُمْ وَمَحْكُومُهُمْ إِنَّمَا يَسْتَمِدُّونَ سُلْطَاتِهِمْ مِنْ تَنْفِيذِهِمْ لِشَرِيعَةِ اللهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَيْسَ لَهُمْ فِي جُمْلَتِهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا عَنْهَا، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا هُمْ وُكَلَاء مُسْتَخْلَفُونَ فِي الْأَرْضِ بِشَرْطٍ وَعَهْدٍ؛ وَلَيْسُوا ملاكًا

خَالِقِينَ لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ أَرْزَاقٍ[٢٥].

والإسلام عنده مسيطر، قال: وَالْإِسْلَامُ حِينَ يُسَيْطِرُ عَلَى الْحَيَاةِ وَيُصَرِّفُهَا، يَأْخُذُ الْحَيَاةَ جُمْلَةً، وَيَأْخُذُ الْأَمْرَ جُمْلَةً; فَيُسْقِطُ ابْتِدَاءً كُلَّ أَوْضَاعِ الْجَاهِلِيَّةِ وَكُلَّ قِيَمِهَا، وَكُلَّ عُرْفِهَا، وَكُلَّ شَرَائِعِهَا؛ لِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ بُطْلَانًا أَصْلِيًّا غَيْرَ قَابِلٍ لِلتَّصْحِيحِ الْمُسْتَأْنَفِ..[٢٦].

ويقول في موضع آخر: مَنْهَجَ اللهِ يُرِيدُ أَنْ يُسَيْطِرَ؛ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ كَمَا هُوَ الْإِعْلَانُ الْعَامُّ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَاهِجُ الْجَاهِلِيَّةِ تُرِيدُ دِفَاعًا عَنْ وُجُودِهَا أَنْ تَسْحَقَ الْحَرَكَةَ الْمُنْطَلِقَةَ بِمَنْهَجِ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَأَنْ تَقْضِيَ عَلَيْهَا...[٢٧]

ويكرّر سيد قطب التأويلَ ذاتَه في تفسير آية محمد، فيقول: أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ؛ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ. أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ اعْتِقَادًا وَتَصَوُّرًا لِلْحَيَاةِ. وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ارْتِبَاطًا وَصِلَةً بِالْعَلِيِّ الْأَعْلَى. وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ مَنْهَجًا وَهَدَفًا وَغَايَةً. وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ شُعُورًا وَخُلُقًا وَسُلُوكًا.. ثُمَّ.. أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ قُوَّةً وَمَكَانًا وَنُصْرَةً. فَمَعَكُمُ الْقُوَّةُ الْكُبْرَى: ﴿وَاللهُ مَعَكُمْ﴾؛ فَلَسْتُمْ وَحْدَكُمْ؛ إِنَّكُمْ فِي صُحْبَةِ الْعَلِيِّ الْجَبَّارِ الْقَادِرِ الْقَهَّارِ، وَهُوَ لَكُمْ نَصِيرٌ حَاضِرٌ مَعَكُمْ، يُدَافِعُ عَنْكُمْ، فَمَا يَكُونُ أَعْدَاؤُكُمْ هَؤُلَاءِ وَاللهُ مَعَكُمْ؟! وَكُلُّ مَا تَبْذُلُونَ، وَكُلُّ مَا

٢٥ – ينظر: في ظلال القرآن، مرجع سابق، (٣١٩/١).
٢٦ – المرجع نفسه، (٦٢٣/٢).
٢٧ – المرجع نفسه، (١٦٢٠/٣).

تَفْعَلُونَ، وَكُلُّ مَا يُصِيبُكُمْ مِنْ تَضْحِيَاتٍ مَحْسُوبٌ لَكُمْ، لَا يَضِيعُ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَيْكُمْ [٢٨].

إن هذه المعاني التي ذكرها سيد قطب لا إشكال فيها عند مَنْ لمْ يعرفْ لوازمَها، والإشكال ههنا يظهر في تأويلِ الآيتيْن اللتيْن ورَدَتْ فيهما مُفْرَدةُ (الأَعْلَوْنَ)، وفي تلكم الأحكام الكليّة التي قرّرها، وفي استحضار تصوُّرِه عن الجاهلية، وما يلزم عنه عند ذكره لاستعلاء الإيمان أو الدين، من ذلك قوله: إِنَّ أَصْحَابَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهَّ لَا بُدَّ أَنْ يَجِدُوا حَقِيقَةَ رَبِّهِمْ فِي نُفُوسِهِمْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ حَتَّى يَمْلِكُوا أَنْ يَقِفُوا بِإِيمَانِهِمْ فِي اسْتِعْلَاءٍ أَمَامَ قُوَى الْجَاهِلِيَّةِ الطَّاغِيَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ... أَمَامَ الْقُوَّةِ الْمَادِّيَّةِ. وَقُوَّةِ الصِّنَاعَةِ. وَقُوَّةِ الْمَال. وَقُوَّةِ الْعِلْمِ الْبَشَرِيِّ. وَقُوَّةِ الْأَنْظِمَةِ وَالْأَجْهِزَةِ وَالتَّجَارِبِ وَالْخِبْرَاتِ.[٢٩]

يستمر سيد قطب في إسقاط هذا التصور على آياتٍ أُخَر، فيقول: وَيَتَرَفَّعُونَ عَنِ الْمُهَاتَرَةِ مَعَ الْمُهَاتِرِينَ الطَّائِشِينَ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ لَا عَنْ ضَعْفٍ وَلَكِنْ عَنْ تَرَفُّعٍ، وَلَا عَنْ عَجْزٍ إِنَّمَا عَنِ اسْتِعْلَاءٍ، وَعَنْ صِيَانَةٍ لِلْوَقْتِ وَالْجُهْدِ أَنْ يُنْفَقَا فِيمَا لَا يَلِيقُ بِالرَّجُلِ الْكَرِيمِ الْمَشْغُولِ عَنِ الْمُهَاتَرَةِ بِمَا هُوَ أَهَمُّ وَأَكْرَمُ وَأَرْفَعُ.[٣٠].

ومثل هذا الفهْم نجده عند كثيرين في مواقع التواصل الاجتماعي؛ إذ

٢٨ – المرجع نفسه، (٦٤٤٨/١).
٢٩ – المرجع نفسه، (٣٨٧٢/١).
٣٠ – المرجع نفسه، (٥١٠٧/١).

يختم أحدهم نقاشًا ما بكلمة (سَلَامًا) مُؤذنًا مُنَاقِشَهُ بأنَّه جَاهِل؛ رغم أن اللفظ القرآني إنما اُسْتُعْمِل بمعنى التحية والوداع، قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧].

إنَّ تصَوُّرَ سيد قطب عن(استعلاء الإيمان)، واستعماله مقرونًا

بمفهومَيْ: الجاهليّة والحاكميّة، يحكُمه منطق حدي، وهو ليس تأويلًا موضُوعِيًّا لنصوصٍ قرآنيّةٍ؛ لكنَّه توسُّلٌ بالقرآن الكريم؛ لتبرير الحالة النفسية التي ينتهي إليها مَن اتَّـكَأَ على ثُنائيّةِ الحاكِمِيّة والجَاهِليّة، ولا فرق ههنا بين التبرير اللاهوتي والتبرير الإثني أو الثقافي، ولا فرق بين الاستعلائية[٣١] الدينية والاستعلائية الفلسفية، والغالب في مَنْ هَذا شأنُه ألّا يُوَفَّق فِي اختِيارِ مصْطَلحاتِه؛

فإن من معاني الفعل (اسْتَعْلَى) المُعاصِرَة: تَكبَّر وتعَالى[٣٢]،وإن سيد قطب نفسه ليغفل؛ فيستعمل (الاستعلاء) بمعنى: (الاستكبار) من غير قيْدٍ؛

فقد قال:

لَفْظَةُ (الْمُقْبُوحِينَ) تَرْسُمُ بِذَاتِهَا صُورَةَ الْقُبْحِ وَالْفَضِيحَةِ وَالتَّشْنِيعِ، وَجَوِّ التَّقَزُّزِ وَالِاشْمِئْزَازِ، ذَلِكَ فِي مُقَابِلِ الِاسْتِعْلَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ فِي الْأَرْضِ[٣٣].

٣١ – يعرِّف معجم اللغة العربية المعاصرة الاستعلائية بالقول: نزعة لدى البعض تتمثّل في الإحساس بالذّات والنظر إلى مَن عداهم نظرة دونيّة تحقيريّة. ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر وآخرون، عالم الكتب، مصر، ط١، ٢٠٠٨، (١٥٤٧/٢).

٣٢ – ينظر: المرجع نفسه، (١٥٤٦/٢).

٣٣ – في ظلال القرآن، مرجع سابق، (٢٦٩٥/٥).

وقال أيضًا: فَأَبَوْا أَنْ يَسْمَعُوا حَتَّى يَئِسَ مِنْهُمُ الرَّسُولُ. ثُمَّ كَانَ مَصْرَعُهُمْ فِي هَوَانٍ بَعْدَ الِاسْتِعْلَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ[٣٤].

والاستعلاء مصطلح فرعوني، وهامش مهم، وسبب رئيس في أن يُسيءَ أتباع سيد قطب فهْمَ (استعلاء الإيمان) عنده إذا سلّمنا أنه أرادَ إجمالًا معنًى محمودًا؛ وليس كذلك مثلما أساءَ متأخرو الحنابلة من المتعصِّبين فهْم ما سُمِّيَ (هجْر المبتدع).

وكما استحضَر سيد قطب مفهومَيْ: الحاكمية والجاهلية، استحضروا حديثَ خيْريّة القُرونِ الأُولى، ونجزم أن عامة الناطقين باللغة العربية، وعامة المسلمين، زمن سيد قطب وفي الزمن المعاصر، متى ذُكِرَ لهم الاستعلاءُ صُرِفَتْ خواطرُهم إلى معانٍ سلبية حتى لو قُرِنَ بالإيمانِ أو العقيدة.

٣٤ – المرجع نفسه، (٣٢٠٧/٥).

المبحث الثالث

حضور استعلاء الإيمان في أدبيات الإسلاميين وأثره النفسي

- **المطلب الأول: حضور استعلاء الإيمان في أدَبيّات الإسلاميين:**

شرَّقت آثار سيد قطب وغرَّبت، وتلقَّفَ مقولاته خَلْقٌ كثير من الكُـتَّابِ، وحَازَتْ فرضِيَّتَا الحاكمية والجاهلية قصب السبْق، ولكنّهما عادةً ما تشفعان بمفهوم الاستعلاءِ في صورةِ نُقُول عن سيّد قطب، ولا بأس أنْ نبتدِئَ بتقديمِ سيد قطب لكِتَاب الندوي (ماذا خسر العالم بانحِطاط المسلمين)، وفِيه كرّرَ مصطلح الجاهلية ستّ مرَّاتٍ! فقال: إنَّ الإسلامَ عقيدةُ استعلاءٍ، من أخصّ خصائصِها أنّها تبْعثُ في رُوح المؤمن بها إحساسَ العزّة من غيْر كِبْرٍ، ورُوحَ الثِّـقَة في غيْرِ اعتِزازٍ، وشعورَ الاطمئنانِ في غير تواكُلٍ. وأنها تُشْعِرُ المسلِمين بالتبعة الإنسانيّة المُلقاة على كواهلهم، تبعة الوِصَاية على هذه البشريّة في مشارقِ الأرض ومغاربِها، وتبعة القيادة في هذه الأرض للقطعان الضالة، وهدايتها إلى الدين القيّم، والطريق السّوِيّ، وإخراجها من الظلمات إلى النور بما آتاهم الله من نور الهدى والفرقان.[٣٥]

وهذا النص اختزال لما جاء في كتاب المعالم، وفي تفسيره، ومما سبق تفصيله. ونشرع في ذكر الآخذين عن سيد قطب.

٣٥ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، علي الندوي، مكتبة الإيمان، مصر، [د ط]، ص ١٠

ممَّنْ أخذ باستعلاء الإيمان زهير الخالد في كتابه (علاقة المعسكر النصراني الصليبي بالمسلمين عبر التاريخ ومنطلقاتها الأساسية): أين ذكر مصطلح (الاستعلاء الإيماني) في ثلاثة مواضع من كتابه[٣٦]، وقرن بين الخرافات والبدع والضلالات والصوفيات، واعتمد فيه كلام سيد قطب، وكتابَيْ محمد قطب: (جاهلية القرن العشرين) و(هل نحن مسلمون). وهو وإن لم يذكر هذه الكتب في كلامه عن الاستعلاء الإيماني فلا بُدَّ متأثر بسيد قطب؛ لأنه أول مَنْ نحته حسب اطلاعي، ومِنْ تأثُّرِه بهِ تَكرار مصطلح (الجاهلية) في مواضع عدَّة من كتابه.

ويقودني ذكْرُ محمد قطب إلى ذكر الاستعلاء عنده، فقد نصّ عليه في كتابه السالف (هل نحن مسلمون)، وابتدأه بآية آل عمران كما فعل سيد قطب، واشْتَطَّتْ به العاطفة فحصر، وقال: إنما الاستعلاء مصدره الإيمان... وحده[٣٧].

والمسلمون عنده استعْلَوْا بإحساسهم؛ أنهم -وهم مؤمنون- أفضل من كلّ الخَلْقِ، مهما كان عددهم وقوتهم، وعتادهم وحضارتهم، ونُظُمهم وقوانينهم وتشريعاتهم، وهي عنده كلها انحرافات جاهلية؛ ما دامت لا تهتدي بهدْيِ الله، ولا تتَّبع شريعةَ الله[٣٨].

٣٦ – ينظر: علاقة المعسكر النصراني الصليبي بالمسلمين عبر التاريخ ومنطلقاتها الأساسية، زهير الخالد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، [د ط]، ١٩٧٤، ص ١١٥، ص ١١٦، ص ١٢٠.

٣٧ – ينظر: هل نحن مسلمون، محمد قطب، دار الشروق، ط٦، ٢٠٠٢، ص ٤٧.

٣٨ – ينظر: المرجع نفسه، ص ٥٠.

وهو إنما يريد تصوره هو عن هدْيِ الله، وعن شريعته، وفي الكتاب يذكُرُ الاستعلاءَ مقرُونًا بالجاهلية؛ على عادةِ سيد قطب.

ممَّنْ أخذَ بمصطلح سيد قطب أيضًا عبد الرحمن عبد الخالق اليوسف المصري الكويتي في كتابه (أضواء على أوضاعنا السياسية)، حيث

قال: العقيدة الإسلامية عقيدةُ استعلاء فوقية، لا تَرْضَى لأصحابِها بالذّلِّ والدَّنِيَّة، ولا تحصرهم فقط في إطار الشعائر الدينية العِباديّة [٣٩].

ومن تأثُّره بسيد قطب أن خصّصَ في الكتاب مبحثًا وسَمَّاه بـ(رياح الجاهلية تهب على العالم الإسلامي).

نقف على مصطلح الاستعلاء عند الأردني صلاح عبد الفتاح الخالدي، وهو من أبرز مَنْ خدَمُوا تراثَ سيد قطب، إذْ أنجَزَ رسالة الماجستير

عنوانها: (سيد قطب والتصوير الفنِّيّ في القرآن)، ووسم أطروحة الدكتوراه بـ(في ظلال القرآن: دراسة وتقويم)، ومن كُتُبِه: (سيد قطب الشهيد الحي).

ويظهر مصطلح استعلاء الإيمان في كتابه: (في ظلال الإيمان)، والتأثر بسيد قطب ظاهر من خلال عنوان الكتاب (الظِّلال)؛ وقد خصَّصَ مبحثًا لاستعلاء الإيمان في كتابه[٤٠]، وفيه إشارةٌ إلى مبحث سيد قطب في

٣٩ – أضواء على أوضاعنا السياسية، عبد الرحمن اليوسف، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٧٨، ص ٢٤.

٤٠ – ينظر: في ظلال الإيمان، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠١٣، ص ٢٢٧ وما بعدها.

كتابه: (معالم في الطريق)[41] ونقْل لنصُوصِه، واستِحضَار للجاهلية، وآية آل عمران.

ورغم أنّه أقرّ أنّ الآيةَ نزلَت في مناسبة الحرْبِ والجهادِ، وفي التعقيب على أحداثِ غزوة أُحُد، إلّا أنّه رجَعَ إلى كلام سيد قطب في كوْنِ الاستعلاءِ حالةً دائمةً، والحاصِل أنْ ليس في مبحثِه هذا غير ما في مبحث سيد قطب.

لم يذْكر مصطلح (الاستعلاء القطبي) في كتب الدعوة حصرًا، كذلك امتدَّ إلى التفاسير الحديثة والمعاصرة، وإلى حواشي ما حقّقَ من الكتُب التراثية، فهذا عبد العزيز القارئ ينصّ على استعْلاء الإيمَان في كتابه: (تفسير سورة العصر)، مقتبسًا من تفسير سيد قطب[42].

وكذلك فعل السوري سعيد حوى (ت١٩٨٩م) في تفسيره (الأساس)؛ حيث نقَل نصُوصًا في الاستِعلاء من كتاب سيد قطب[43]، وتفسيره طافح بذكر الحاكمية والجاهلية، وخصَّ سعيد حوى استِعلاء الإيمان بمبحث كامل في كتابه (الإسلام)[44]، ونقَلَ كلامَ سيد قطب من (معالم في الطريق) تامًّا، مع قبولٍ تامٍّ من غيرِ تعليقٍ أو إيرَادٍ.

وكذلك نجد هذا المصطلح عند رفاعي سرور في كتابه (التصور السياسي

٤١ – ينظر: المرجع نفسه، ص ٢٢٨ وما بعدها.
٤٢ – ينظر: تفسير سورة العصر، عبد العزيز القارئ، مكتبة الدار، [د ط]، ص ٥٦.
٤٣ – ينظر: الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، [د ط]، (١٢١٤/٢) وما بعدها.
٤٤ – ينظر: الإسلام، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٤، ٢٠٠١، ص ٧٣–٨٠.

للحركة الإسلامية)[٤٥].

وهذا المعنى حاضر عند أبي مصعب السوري، المنظر الحركي المشهور، في كتابه (التجربة السورية)[٤٦].

والحاصِلُ أنَّ الآخِذين عن سيد قطب اتَّخَذُوا موقفَ المسلِّم القانِع، وقدْ طغتْ على زيادَاتِهم المسحة الأدبيّة ذاتها التي نجدها عند سيد قطب، مع ما فيها من إثارةٍ للعواطفِ، وحشْدٍ للعصبيّة الدّينيّة.

- **المطلب الثاني: أثر فرضية استعلاء الإيمان النفسي على الفرد والمجتمع:**

الاستعلاء عند سيد قطب هو الحالة النفسية التي تعتَوِرُ مِنْ لمْ يكن جاهليًّا، وهو النظَّارة التي يضعها الفرْد لكي يرى بها غيرَه، يقول: ...وَأَعْطَاهُمُ الِاسْتِعْلَاءَ الذِي يَنْظُرُونَ بِهِ إِلَى قُطْعَانِ الْبَشَرِيَّةِ الضَّالَّةِ، فِي أَرْجَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ الْمُتَرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ فِي الْأَرْضِ، فَيحسونَ أَنَّ اللهَّ آتَاهُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ..[٤٧].

وإنه لو أراد المعنى المحمود لاكتفى بمصطلح السمو أو التسامي، لا عن الخلْقِ؛ بل عن أفعالهم، ويحضُرني ههنا قول لوط عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾[الشعراء: ١٦٨]، فإنه صرَفَ الكُرْهَ

٤٥ – ينظر: التصور السياسي للحركة الإسلامية، رفاعي سرور، ص١١٦، دار الفرقان للتراث، ١٩٩٥م.

٤٦ – ينظر: الثورة الإسلامية الجهادية في سوريا: الجزء الثاني: الفكر والمنهج، عمر عبد الحكيم، ص ١٤٦.

٤٧ – المرجع نفسه، (٢٥٢/١).

البالغَ إلى عملِهم؛ لا إليهم.

ولا نُسِيءُ الظّنّ إنْ قُلنا: إنّ سيد قطب اختارَ هذا المصطلحَ المُبْهم؛ لَمَا فيه من هامشٍ للتأويل؛ ولأنه لا يمكن أنْ يُطبّق عمليًّا إلا بمعناه السلبيّ،

أيْ: الإحساس بالفوقيَّة والخيرية، ولا فرق ههنا بين قول إبليس: أنا خيرٌ منه؛ خلقْتَنِي من نارٍ وخلَقْتَه من طِينٍ، وبين قول أتباعِ سيد قطب: نحن خيرٌ؛ نؤمن بالحاكميّة ونكفر بالجاهلية، وغيرنا يكفر بالأُولَى ويؤمِنُ بالثانية!

لا يقف المؤمنُ بعقيدة (استعلاء الإيمان) عند حدود تبرير الحالة النفسية التي يعانيها الفرْدُ؛ ولكنه يمتدّ لتبرير الفعل وعدَمه؛ من ذلك أن جماعات الإسلام السياسي قد تتوسَّل السلطة أوانْتِزَاعِ زِمَامِ الْأَمْرِ مِنْ أَيْدِي الْكَافِرِينَ وَالْفَجَرَةِ وَالظَّالِمِينَ باصطلاح أبي الأعلى المودودي[٤٨].

مراهنةً على العاطفة الدينية لدى الشعوب؛ فإن الجماعات الإرهابية تبرّر العمليات الانتحارية بالمنطق ذاته؛ يقول سيد قطب: وَالِاسْتِعْلَاءَ عَلَى غُرُورِ الْمَتَاعِ الزَّائِلِ وَجَاذِبِيَّتِهِ الْمُقَيَّدَةِ بِالْأَرْضِ. هَذَا الِاسْتِعْلَاءُ الَّذِي كَانَ الْمُخَاطَبُونَ بِهَذِهِ السُّورَةِ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ لِيُحَقِّقُوا إِيمَانَهُمْ. وَالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ بِعَقِيدَةٍ، لِيُحَقِّقَ عَقِيدَتَهُ وَلَوِ اقْتَضَى تَحْقِيقُهَا أَنْ يُضَحِّيَ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا جَمِيعًا.[٤٩]

٤٨ – ينظر: الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت، [د ط]، ١٩٨٠، ص ١٥.

٤٩ – في ظلال القرآن، مرجع سابق، (٣٤٩١/٦).

وكلام سيد قطب هذا واقعي من وجهٍ؛ لوْ أنه لمْ يستشِفّه من سورة قرآنية، فكلّ مؤمنٍ بعقيدةٍ وراغبٍ في أنْ يَفرضَها علَى غيرِه لا بُدّ مُسْتَعْلٍ.

مثالُها: الاستعلائية الصهيونية، وفرضية الحق الإلهي، واستعلائية دُعاة تفوُّقِ البِيض(White supremacy) التي كانت سببًا في هجومَيْ كرايستشيرش في نيوزيلندا، وليس المُراد بالعقيدة في كلام سيد قطب حقيقتها عند جمهور علماء الإسلام؛ إنما المراد الدوغمائية أو الجزمية، التي ترى الآخرَ لاغِيًا.

والدوغمائية لا تختص بدين أو جنس، وما أكثر الكُتّاب الأوربيين الذين ملؤوا الصحافة بفوبيا المهاجرين، ومنهم الفرنسي إريك زمور (Éric Zemmour) الذي طالما ردَّدَ أنّ الفرنسيِّين ذوِي الأصولِ الأجنبية ينبَغي أن يسموا أبناءَهم بأسماء فرنسية، وأن يلبسُوا لباسًا فرنسِيًّا، فإن لم يفعلوا ذلك؛ فهم ليسوا فرنسِيِّينَ بما يكفي!

يصرح سيد قطب بمهمته الأولى، وهي تغيير المجتمع، وهو مُوقِنٌ بأنَّ الاصطدامَ واقعٌ لا محالة، ويقترحُ لأجل التغيير الاستعلاءَ، يقول: إنَّ أُولَى الخطوات في طريقنا هي أنْ نَسْتَعْلِيَ على هذا المجتمع الجاهلي وقِيَمِه وتَصَوّراته، وألا نُعَدِّلَ نحن في قِيَمِنا وتصَوُّرَاتنا قليلًا أو كثيرًا؛ لنلتَـقِيَ معه في منتصف الطريق، كلا! إننا وإياه على مفرق الطريق، وحين نُسَايرُه خطوةً

واحدَةً، فإننا نَفْقدُ المنهجَ كلَّه، ونفقد الطريقَ!»[٥٠].

إن سيد قطب بمنْطِقِه الوجْدانِيّ مستعجل التغييرَ، وليس مؤمنًا باتِّهامِ النفْس، ونقد تصوراته، كلا! إنه يملك الحقيقةَ، وليس مستعدًّا لمناقشةِ مُسلَّمَاتِه، ثم إنّه مُقَامِر يؤمن بداءَةً أنّ المجتمعَ جاهليٌّ، ولا بديل عن تغييره.

والتغيير عنده لا يكون بمجرد التبليغ والبيان! وإنما يُنْتَزَعُ انْتِزَاعًا؛ يقول سيد قطب في تفسيره: وَقِيَامُ مَمْلَكَةِ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَإِزَالَةُ مَمْلَكَةِ الْبَشَرِ. وَانْتِزَاعُ السُّلْطَانِ مِنْ أَيْدِي مُغْتَصِبِيهِ مِنَ الْعِبَادِ وَرَدُّهُ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ. وَسِيَادَةُ الشَّرِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَحْدَهَا وَإِلْغَاءُ الْقَوَانِينِ الْبَشَرِيَّةِ.. كُلُّ أُولَئِكَ لَا يَتِمُّ بِمُجَرَّدِ التَّبْلِيغِ وَالْبَيَانِ.[٥١].

وكأني به ذكَرَ قوْلَ الحقّ في رسولهﷺ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وتَكراره لهذا الحصر في عشرة مواضع من القرآن الكريم، فاستنكف عنه ومضى!

وأما تبرير عدم الفعل، فهو أن يتنكر المؤمن بعقيدة (استعلاء الإيمان) لشروط نهضة الأُمَم التي لا تَدينُ بما يَدِينُ به، أيْ: أنْ يتنكّر لقوةِ العقل البشري نفسه (وهو اصطلاح سيد قطب)، ويلزم منه أن يستنكرَ شروطَ الدّعوة إلى الله بالحكمة والموعظة، والجدال بالتي هي أحسن.

٥٠ – ينظر: معالم في الطريق، مرجع سابق، ص ١٩.
٥١ – ينظر: في ظلال القرآن، مرجع سابق، (١٤٣٤/٣).

ومن المفارقات التي وقفنا عليها، اختلاف تأويل آية آل عمران عند كلٍّ مِنْ: سيد قطب، والإمام محمد عبده، مع تأخُّر الأول، وتقدُّم الثاني زمنيًّا؛ فترى الإمام يستحضر الأسبابَ الموضُوعيّةَ؛ فيقول: «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ بِرُجْحَانِكُمْ عَلَيْهِمْ فِي مَجْمُوعِ الْوَقْعَتَيْنِ بَدْرٍ وَأُحُدٍ إِذِ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا مِنْكُمْ، عَلَى كَثْرَتِهِمْ وَقِلَّتِكُمْ، أَوْ جُمْلَةُ (وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ): مُعْتَرِضَةٌ يُرَادُ بِهَا التَّبْشِيرُ بِمَا يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ النَّصْرِ، وَهُمَا قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ لِلتَّسْلِيَةِ أَوْ لِلْبِشَارَةِ، فَهِيَ مُرْتَبِطَةٌ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا شَائِبَةَ فِيهِ؛ فَإِنَّ مَنِ اخْتَرَقَ هَذَا الْإِيمَانُ فُؤَادَهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ سُوَيْدَائِهِ، يَكُونُ عَلَى يَقِينٍ مِنَ الْعَاقِبَةِ، بَعْدَ الثِّقَةِ مِنْ مُرَاعَاةِ السُّنَنِ الْعَامَّةِ وَالْأَسْبَابِ الْمُطَّرِدَةِ»[٥٢].

بل إن الإمام محمد عبده جعل الاستعلاء مطية بَغْي الرجل على زوجه؛ حين قال الحق: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]: ÷أَتَى بِهَذَا بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الْبَغْيِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ إِنَّمَا يَبْغِي عَلَى الْمَرْأَةِ بِمَا يُحِسُّهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الِاسْتِعْلَاءِ عَلَيْهَا، وَكَوْنِهِ أَكْبَرَ مِنْهَا وَأَقْدَرَ، فَذَكَّرَهُ تَعَالَى بِعُلُوِّهِ وَكِبْرِيَائِهِ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ لِيَتَّعِظَ وَيَخْشَعَ وَيَتَّقِيَ اللهَّ فِيهَا[٥٣].

وليس الاستعلاء طلبا للتبرير والراحة النفسية فقط؛ بلْ إنه مصدرٌ للسعادةِ واللَّذَّةِ أيضًا، إنها اللذة العُلْوِيّة (باصطلاح سيد قطب)، ولذة الاستعلاء على

٥٢ – تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [د ط]، ١٩٩٠،(١٢٠/٤).

٥٣ – ينظر: المرجع نفسه، (٦٣/٥).

الضعف والهبوط[٥٤]، والاستعلاء نفسه إثبات للوجود الإنساني عنده[٥٥]، وهو وسيلة للصبر على الآلام[٥٦]، وخلاصة صبغة الاستعلاء أن نصفه بأنه مخدر.

إن عقيدةَ استعلاء الإيمان مذهبٌ فَردانِيّ سلْبِيّ، لا يخدم المجتمعَ من أيِّ وجْهٍ، وهو مذهبُ صراعٍ لا مذهب تعايُش، ومذهب إقصاءٍ لا مذهب قبول.

يقول سيد قطب: إِنَّ التَّوْجِيهَ الْقُرْآنِيَّ فِي هَذِهِ الْمَوْجَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا وَفِي غَيْرِهَا كَذَلِكَ يَشْمَلُ هَذَا كُلَّهُ... إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَعْلِيَ صَاحِبُ الدَّعْوَةِ بِدِينِهِ; فَلَا يَسْتَجِيبُ لِاقْتِرَاحَاتِ الْمُقْتَرِحِينَ; وَلَا يُحَاوِلُ تَزْيِينَ هَذَا الدِّينِ بِغَيْرِ اسْمِهِ وَعُنْوَانِهِ; وَلَا مُخَاطَبَةَ النَّاسِ بِهِ بِغَيْرِ مَنْهَجِهِ وَوَسِيلَتِهِ... إِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ. وَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِدِينِهِ عُبُودِيَّةً لَهُ، وَانْسِلَاخًا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِسِوَاهُ، فَلَا حَاجَةَ لِهَذَا الدِّينِ بِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا حَاجَةَ للهِ -سُبْحَانَهُ- بِأَحَدٍ مِنَ الطَّائِعِينَ أَوِ الْعُصَاةِ.[٥٧]. ويستمر سيد قطب في التحدُّث باسم السماء، ويشْتَطّ في أن يجعلَ جماعةَ المسلمين مُسْتَعْلِينَ على كل ما في الأرض[٥٨].

إن المُسْتعْلِي له سُلْطَة الآمِر، حسب سيد قطب الذي يقول: وَنَحْسَبُ أَنَّهُ قَدْ آنَ لِلْإِسْلَامِ أَنْ يَسْتَعْلِيَ فِي نُفُوسِ دُعَاتِهِ، فَلَا يَجْعَلُوهُ مُجَرَّدَ خَادِمٍ لِلْأَوْضَاعِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْمُجْتَمَعَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْحَاجَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَأَنْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ

٥٤ – ينظر: في ظلال القرآن، مرجع سابق، (١٦١٦/٣).
٥٥ – ينظر: المرجع نفسه، (١٦٥٦/٣).
٥٦ – ينظر: المرجع نفسه، (٣٠١٦/٥).
٥٧ – ينظر: المرجع نفسه، (١٠٨٤/٢).
٥٨ – ينظر: المرجع نفسه، (٢٧١٣/٥).

وَلِلَّذِينَ يَسْتَفْتُونَهُمْ بِوَجْهٍ خَاصٍّ تَعَالَوْا أَنْتُمْ أَوَّلًا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَعْلِنُوا خُضُوعَكُمْ سَلَفًا لِأَحْكَامِهِ[٥٩].

يرى المؤمن باستعلاء الإيمان أنه مؤيّد من السماء، ولا بُدّ أنْ يَسْتَعْلِيَ على ضَرُوراتِ الأرْضِ، وعلى عُرْفِ الناس؛ يقول سيد قطب: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]: قُوَّةً وَهَيْبَةً أَسْتَعْلِي بِهِمَا عَلَى سُلْطَانِ الْأَرْضِ وَقُوَّةِ الْمُشْرِكِينَ وَكَلِمَةُ (مِنْ لَدُنْكَ) تَصَوِّرُ الْقُرْبَ وَالِاتِّصَالَ بِاللهِ وَالِاسْتِمْدَادَ مِنْ عَوْنِهِ مُبَاشَرَةً وَاللُّجُوءَ إِلَى حِمَاهُ[٦٠].

وكما سبق فإن ظاهر كلام سيد قطب يبدو متسقًا مع فلسفة المعرفة الإسلامية، ولكن الإشكال يظهر في مفاهيمِه، ولوازمِه، ولْنَأخُذْ نصًّا من نُصُوصِ تفسيرِهِ لنُبيِّنَ خطَرَه علَى المجتمع؛ حيث يقول: فَأَمَّا الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ مُسْلِمُونَ ثُمَّ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ، وَيُحَارِبُونَ الصَّلَاحَ فِي حَقِيقَتِهِ الْأُولَى وَهِيَ إِقْرَارُ مَنْهَجِ اللهِ فِي الْأَرْضِ، وَشَرِيعَتِهِ فِي الْحَيَاةِ، وَأَخْلَاقِهِ فِي الْمُجْتَمَعِ، فَهَؤُلَاءِ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ ثَوَابِ اللهِ شَيْءٌ[٦١].

٥٩ – المرجع نفسه، (٢٠١١/٤).
٦٠ – المرجع نفسه، (٢٢٤٧/٤).
٦١ – المرجع نفسه، (٨٦/١).

يظهر الإشكال في هذا النص فيما يلي:

- ما الإفسادُ في الأرض؟
- ما منهجُ الله في الأرض؟ وما شريعتُه في الحياة؟ وما أخلاقه في المجتمع؟
- هل الإفساد في الأرض ينفي عن المسلم إيمانه مطلقًا؟

نبدأ من السؤال الأخير؛ إذْ لم يقُلْ مذهبٌ إسلاميّ مُعتبَر بكُـفْرِ مَنْ أفسدَ في الأرضِ؛ وإنما هي مَقَالة الخوارج، فهذا شيخ الأزهر أحمد الطيب وهو مِمَّنْ خَدَمُوا أعمالَ الشيخِ الأكبَر ابْن عرَبي يُصرِّح قائِلًا:

لا أستطيع تكفير داعش، وإنما أحكم عليها بالفسق والخروج... وهو حكم المفسدين في الأرض.

وأما جواب السؤال الأول والثاني فمُمْتدّ، ويمكن أنْ نختصرَه بالقوْل: إنه تصوُّر سيد قطب عنْ منهجِ الله في الأرض، وعن شريعته في الحياة، وعن أخلاقه في المجتمع!

إنه الديْنونة والاتباع والحاكمية، وهي عنده خلافَ الدساتير الوضْعِيّة، والأغلبيّة البرلمانِيّة، والحريات الصحفية، والحاكمية الأرضية؛ بل إن الوطنية والقومية والشعب عنده محض أصنام وآلهة، وجاهلية حديثة، أقلّ أدبًا مع الله من الجاهلية القديمة[٦٢]؛يقول سيد قطب: إن الإسلام هو الإسلام،

٦٢ – ينظر: المرجع نفسه، (١٤١٣/٣).

والاشتراكية هي الاشتراكية، والديمقراطية هي الديمقراطية... ذلك منهج الله، ولا عنوان له، ولا صفة، إلا العنوان الذي جعله الله له، والصفة التي وصفه بها ... وهذه وتلك من مناهج البشر [٦٣].

وكل ما كان خلاف الإسلام عنده فهو من مناهج العُمي، وهذا خلط شنيع، وهو فيه تابع لأبي الأعلى المودودي.

إن سيد قطب يدعو إلى الاستعلاء على الجاهليِّين، ومَنْ الجاهليون عنده؟ وما البشرية الضَّالّة؟

إِنَّ الْبَشَرِيَّةَ تَنْقَسِمُ عنده شِيَعًا؛ كُلُّهَا جَاهِلِيَّةٌ: شِيعَةٌ مُلْحِدَةٌ، وَشِيعَةٌ وَثَنِيَّةٌ، وَشِيعَةٌ (أَهْلُ كِتَاب)، وَشِيعَةٌ تُسَمِّي نَفْسَهَا (مُسْلِمَةً)! كذا عبّر سيد قطب؛ فقال: وَشِيعَةٌ تُسَمِّي نَفْسَهَا (مُسْلِمَةً)! وَهِيَ تَتَّبِعُ مَنَاهِجَ أَهْلِ الْكِتَابِ هَذِهِ -حَذْوَكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ- خَارِجَةً مِنْ دِينِ اللهِ إِلَى دِينِ الْعِبَادِ. فَدِينُ اللهِ: هُوَ مَنْهَجُهُ وَشَرْعُهُ وَنِظَامُهُ الَّذِي يَضَعُهُ لِلْحَيَاةِ وَقَانُونُهُ [٦٤].

القارئ لكتب سيد قطب (الظلال) يقف على نفْيِه الإسلامَ عن المسلمينَ في أكثر منْ موْضعٍ، وقد أحصيْتُ فَعْلَته هذه في أكثر من عشرة مواضع من تفسيره، وهو يقيد قوله بلفظة (اليوم)، وبلفظة (بغير حقٍّ) في مواضعَ أُخْرى، ولَعَمْرِي إنْ لمْ يكُنْ هذا تكفيرًا فما التكفير؟!

٦٣ - المرجع نفسه، (١٠٨٣/٢).
٦٤ - المرجع نفسه، (١٢٥٦/٣).

وهي روحُ أبي الأعلى المودودي وعبارته في كتيبه (الإسلام والمدنية الحديثة).

أمَا وبحثنا مختص أساسا بسيد قطب؛ فإنه أعلنها واضحة صريحة حين قال: وَالْجَمَاعَةُ الْمُسْلِمَةُ قَامَتْ لِتَكُونَ فِي مَكَانِ الْقِيَادَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ; فَيَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَسْتَمِدَّ تَقَالِيدَهَا كَمَا تَسْتَمِدُّ عَقِيدَتَهَا مِنَ الْمَصْدَرِ الَّذِي اخْتَارَهَا لِلْقِيَادَةِ... وَالْمُسْلِمُونَ هُمُ الْأَعْلَوْنَ. وَهُمُ الْأُمَّةُ الْوَسَطُ. وَهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.[٦٥]

ومُؤَدَّى مَا سبَقَ ولوازِمُه، أنّ طائفةً من الناس ترى في نفسها أنها أعلَى من غيرها؛ والحال أنها لا تحيا معزولةً في جزيرة؛ بل في مجتمعات تتعدّد فيها المذاهبُ والأديانُ، ويكثُرُ فيها الاختلافُ؛ وهو سُنَّةٌ إلهيّة لا تبْدِيلَ لَها، والقرآن الكريم يشْهَدُ بذلك.

ولكن هذه الجماعة تأبَى التعايُشَ، وترغب في الرّيَاسة، وفي فرْضِ تصوُّرِها عن الوجود على الغير، دون مساومة، الأمرُ الذي ينتهي بالطرفين إلى الصراع والتقاتُل.

سَبق أنْ بَيَّـنَّا أنّ أكثرَ الذين أخذُوا بفرضية (استعلاء الإيمان) عُرِفُوا بعَدَائهم للتّصَوُّفِ والعرفان، وهذا طبعي؛ فإنَّ أساسَ التربيةِ الصّوفِيّةِ التزْكية، واتِّهام النفس، قال القشيري في قوله تعالى:

٦٥ – في ظلال القرآن، مرجع سابق، (١٢٩/١).

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣]، قيل: العُلُوّ فِي الدّنْيَا: أَنْ تَتَوَهَّمَ أَنَّ على البسيطة أحدًا هو شرٌّ منك»[٦٦].

٦٦ – ينظر: لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، (٨٢/٣).

خاتمة

بعد أن ذكرنا طرفًا من معنى الاستعلاء في المعاجم اللغوية، واستعماله القرآني، وثنَّيْنا بمفهوم الاستعلاء عند سيد قطب، وذكرنا بعضَ مَنْ نقَلُوا عنه مِنْ كُـتَّابِ الدّعوة الإسلامية، وبعد أنْ بسطْنا شيئًا من أثَر فرضية استعلاء الإيمان على الفرد والمجتمع، نخلص إلى جملة نتائج:

- الراجح من معنى الاستعلاء في اللغة العربية، وفي الاستعمال القرآني، أنه طلبٌ للعُلُوّ المذْموم.
- سيد قطب هو أول من استحدث مفهوم (استعلاء الإيمان) مستندًا على تفسير خاطئ لآيَتَيْ: آل عمران ومحمد، وقد بسط هذا المفهوم في كتابه «معالم في الطريق» وفي كتابه (الظلال).
- توسل سيد قطب بآيتَيْ: آل عمران ومحمد؛ لاستحداث مفهوم (استعلاء الإيمان) لعلمه أن مصطلحات العقيدة توقيفية.
- فرضية (استعلاء الإيمان) مُتمِّمة لفرضيَّتَيْ: الحاكمية والجاهلية عند سيد قطب، أي: هي نتيجة للأخذ بهما.
- أخذ أكثر المتأثرين بسيد قطب بفرضية استعلاء الإيمان، واكتفوا بنقل نصوص سيد قطب استئناسًا؛ لا تأصيلًا.
- فرضية (استعلاء الإيمان): نوع من أنواع الاستعلائية الدينية، يستغلها الفرد المؤمن بفرضيتي: الحاكمية والجاهلية؛ لتبرير حالتِه

النفسية إزاءَ الآخر؛ ولتبرير الفعْلِ الذي قد يصل به إلى التضحية بالنفس أو عدمه.

- القول باستعلاء الإيمان حضّ على الكراهية، والصدام بين المجتمع الواحد، وبين البشرية عامة، وإيذان بالصدام.

ثبت المصادر والمراجع:

١) القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، [د ط].

٣) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، أبو الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت، [د ط]، ١٩٨٠.

٤) الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، خليل عبد الكريم، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥.

٥) الإسلام، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط٤، ٢٠٠١.

٦) أضواء على أوضاعنا السياسية، عبد الرحمن اليوسف، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٧٨.

٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز مجد الدين الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية،لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٩٩٦.

٨) التصور السياسي للحركة الإسلامية، رفاعي سرور، دار الفرقان للتراث، ١٩٩٥م.

٩) تفسير الراغب الأصفهاني، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١، ١٩٩٩.

١٠) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [د ط]،

١٩٩٠.

١١) تفسير سورة العصر، عبد العزيز القارئ، مكتبة الدار، [د ط].

١٢) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

١٣) الثورة الإسلامية الجهادية في سوريا: الجزء الثاني: الفكر والمنهج، عمر عبدالحكيم.

١٤) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٠.

١٥) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، اليمن الحلبي، تحقيق: أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، [د ط].

١٦) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان الحميري، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري وآخران، دار الفكر المعاصر لبنان، دار الفكر، سورية، ط١، ١٩٩٩.

١٧) علاقة المعسكر النصراني الصليبي بالمسلمين عبر التاريخ ومنطلقاتها الأساسية، زهير الخالد، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، [د ط]، ١٩٧٤.

١٨) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦.

١٩) العين،الخليل الفرهودي، تحقيق: إبراهيم السامرائي ومهدي المخزومي، [د ط].

٢٠) في ظلال الإيمان، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٤، ٢٠١٣.

٢١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط٣٢، ٢٠٠٣.

٢٢) لطائف الإشارات، عبد الكريم القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣.

٢٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، علي الندوي، مكتبة الإيمان، مصر، [د ط].

٢٤) مختار الصحاح، زين الدين الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط٥، ١٩٩٩.

٢٥) معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، ط٦، ١٩٧٩.

٢٦) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين، مجمع اللغة العربية، طبعة منقحة، ١٩٨٨.

٢٧) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر وآخرون، عالم الكتب، مصر، ط١، ٢٠٠٨.

٢٨) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ هـ.

٢٩) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان

الداودي، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط١، ١٤٢٠ هـ.

٣٠) هل نحن مسلمون، محمد قطب، دار الشروق، ط٦، ٢٠٠٢م.

إصدارات أخرى من مبادرة سند (مطويات)

١. الوطن .
٢. المسلم و الإسلامي .
٣. التترس .
٤. أنا متعصب .
٥. رفع الالتباس (أمرت أن أقاتل الناس) .
٦. وقولوا للناس حسنا.
٧. الولاء و البراء .
٨. وصايا النبي في الحرب .
٩. شرعنة الفحش .
١٠. يا كافر .
١١ . الاستشهاد .
١٢. التعامل مع المخالف .
١٣ . الاستعلاء .

إصدارات أخرى من مبادرة سند (أبحاث)

١٤. الجاهلية .
١٥ . حتمية الصدام .
١٦. التمكين .
١٧ . جذور التسامح .

ملخص البحث

فهذه دراسة خُصِّصَت لمناقشة إشكالية (استعلاء الإيمان) التي عُرِفَ بها سيّدُ قطب دونَ غيرِه ممَّنْ سبقُوه من المُتقدّمين والمتأخرين، وذلك من خلال كتابه: (معالم في الطريق)، وتفسيره: (في ظِلالِ القُرآنِ)، استحضرْنا فيها المعاجمَ اللغويّة والاستعمال القرآني للاستعلاء، ونُقُول كُتَّابِ الدَّعوةِ الإسْلاميَّة عن سيّد قطْب، انتهاءً بأثَر فرضية استعلاء الإيمان على الفرد والمجتمع.

www.sanad.network
facebook.com/sanadnetwork
twitter: @sanadnetwork
youtube.com/sanadnetwork
instagram.com/sanadnetwork

مؤسسة طابة
Tabah Foundation
www.tabahfoundation.org
دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH
PUBLICATION & DISTRIBUTION
مبادرة سند هي إحدى مبادرات مؤسسة طابة للأبحاث والاستشارات